المضامين الدعوية في سورة الزخرف

The advocacy contents in Surat Al-Zakhrf

م.م. صهيب إحسان عبد اللطيف

Suhaib Ihsan Abdul Latif

كلية الإمام الأعظم –رحمه الله– الجامعة

College of the Great Imam - may God have mercy on him - University

E-mail: Suhaibalbadre@gmail.com

الكلمات المفتاحية: سورة الزخرف، دعوة، قضايا اجتماعية، اسلوب قصصي، الصحبة الصالحة، أسلوب الحكمة.

Keywords: Surat Al-Zukhruf، invitation، social issues، narrative style، good company، wisdom style.

الملخص

إن للقران الكريم الأثر الكبير في رسم المنهج الدعوي والتقويم للسلوك الإنساني، فقد احتوت سوره وآياته الكلام عن المضامين الدعوية كالوسائل والأساليب التي يجب على الداعية ان يتحلى بها ويلتزم بتطبيقاتها الجزيئية والكلية، وأيضا لما لها من أهمية لدى المتلقي وهو المدعو، فالخطاب الدعوي هو من أفضل المقامات الى الله عز وجل لإخراج الناس من الأفكار التي تعصف بعقولهم ومجتمعاتهم كما هو الحال مع الرسول صلى الله عليه وسلم مع قريش، وحال سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه، وسيدنا عيسى عليه السلام مع قومه أيضا.

وقد وقع اختياري على سورة الزخرف لاحتوائها على مجالات واسعة تخص المضمون الدعوي منهجا وسلوكا وأداء، وضمنته بحثا موسوما بـ"المضامين الدعوية في سورة الزخرف".

Abstract

The Holy Qur'an has a great impact in drawing up the advocacy approach and correcting human behavior. Its surahs and verses contain talk about advocacy contents such as the means and methods that the preacher must have and adhere to their molecular and holistic applications، and also because of their importance to the recipient، who is the invitee. The advocacy discourse is one of the best. Stations to God Almighty to get people out of the ideas that plague their minds and societies as is the case with the Messenger، may God's prayers and peace be upon him، with Quraysh، and the situation of our master Ibrahim، peace be upon him، with his people، and our master Jesus، peace be upon him، with his people as well.

I chose Surat Al-Zukhruf because it contains wide areas related to the advocacy content، methodology، behavior، and performance، and I included it in a research titled "The Advocacy Contents in Surat Al-Zukhruf."

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمـــالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هـادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد:

فإن الدعوة الى الله أســـاس في بناء الفرد وتكوين المجتمع، في جوانبه كافة، الروحية والأخلاقية والاجتماعية، على منهج الإســـلام، ومنهجه صـــالح لكل زمان ومكان، لأنه يســـتمد الأساليب الدعوية من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وهما المصدران الأساسيان للدعوة الى الله ، فمن استمد منهجه من غير الكتاب والسنة فقد ضلَّ عن سواء السبيل، وتاه في ظلمات بعضـها فوق بعض، وابتعد عن الهدف الأسـمى والغاية القصـوى للدعوة الاسـلامية، وهي تحقيق العبودية لله ســـبحانه وتعالى، وهي الغاية التي خلق من أجلها الثقلين الإنس والجان، قال الله تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[١].

يعد القرآن الكريم هو المصـدر الاول للدعوة الى الله،... لأنه منبع هداية وإرشـاد وتوجيه، وقد احتوى على كثير من الآيات التي تدعو الى السـلوك الصـحيح للدعوة والتربية، وعلى تعاليم وأســـاليب واهداف تعمق الوعي الديني والأخلاقي، وتزكي النفوس وتطهرها من الرذائل، وتحقق سـعادة الإنسـان في الدنيا والآخرة[٢]، قال تعالى:﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[٣]، وهو الكتاب الذي يشـــتمل على خيري الدنيا والآخرة، ويلبي الحاجات الإنسـانية في أمور الدين والدنيا. وهذا نبينا ﷺ ضـرب بشـخصـيته المثل الأعلى في الاخلاق الحسـنة، وحسـن الدعوة واعلى مراتبها لأنه ﷺ كان يهتدي بهدي القرآن الكريم، وقد وصـفت السـيدة عائشـة – رضـي الله عنها – خلق النبي ﷺ فقالت في وصـفه:" كان خلقه القرآن"[٤]. وان من أفضـل الطرق في تحقيق الغايات السـامية هو التدبر والتفكر في الآيات القرآنية والتمعن في كلماتها، لأنه من" أشرف الأعمال العلمية وأجلها، وأوضحها سبيلاً لمعرفة أصول دين الله"[٥]. قال تعالى:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٦].

والتدبر في الآيات القرآنية يوجد حالة من الفهم والرهبة والخشوع والشعور بعظمة الخالق سبحانه، مما يؤدي إلى تطبيق ما جاءت به الآيات من التوجيهات والأحكام الشرعية والأساليب الدعوية، وهاك أروع الأمثلة لما قدمه الصـــحابة ﷺ من التدبر لآيات القرآن، قال عبد الله بن حبيب بن ربيعة [٧]:" حدثنا الذين كانوا يقرئوننا، عثمان بن عفانﷺ وعبد الله بن مســـعودﷺ وغيرهما: أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشـر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً"[٨].

ولما كان للقران الكريم الأثر الكبير في رسم المنهج الدعوي والتقويم للسلوك الإنساني، وقع اختياري على سورة الزخرف لاحتوائها على مجالات واسعة للدراسة الدعوية، لاضعها على مبحثين:

المبحث الأول: التعريف بسورة «الزخرف» وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول: اسم السورة وعدد آياتها وكلماتها واحرفها وترتيبها في المصحف

المطلب الثاني: أسباب نزول بعض آياتها

المطلب الثالث: فضل السورة وصلتها بما قبلها

المبحث الثاني: المضامين الدعوية في السورة وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الأساليب الدعوية في سورة الزخرف وفيه:

أولا: الأسلوب القصصي في السورة.

ثانيا: أسلوب الترغيب والترهيب.

ثالثا: أسلوب ضرب الأمثال.

رابعا: أسلوب الحكمة.

المطلب الثاني: المنهج الدعوي في معالجة القضايا الاجتماعية في السورة وفيه

اولا: أهمية القدوة.

ثانيا: أهمية الصحبة الصالحة.

ثالثا: من السنن الإلهية التفاوت في القوة والضعف.

رابعا: تفضيل أهل قريش على غيرهم.

المبحث الأول التعريف بسورة «الزخرف»

المطلب الأول

اسم السورة وعدد آياتها وكلماتها وأحرفها وترتيبها في المصحف

سورة الزخرف من سور القرآن الكريم المكية، أي أنها نزلت على الرسول –عليه الصلاة والسلام– قبل الهجرة النبوية، وقيل الا قوله تعالى ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ فهي مدنية[٩] وهي من السور المثاني، وتقع في الجزء الخامس والعشرين من القرآن الكريم، وقد نزلت سورة الزخرف بعد سورة فصلت وقبل سورة الدخان، وترتيبها في المصحف الشريف الثالثة والأربعون، أما ترتيبها من جهة النزول فهو الثانية والستون، وعدد آياتها تسع وثمانون آية، وتبدأ بالحروف المقطعة حم، إذ تبدأ بهذه الحروف سبع سور من القرآن الكريم تُسمى الحواميم، وسورة الزخرف مثلها مثل السور المكية، تتسم بالطابع العام لها.

يقول العلاّمة برهان الدين البقاعي[١٠]: « دلّت تسميتها بالزخرف لما في آياتها من أنّه لو أراد أن يعمّ الكفر جميع الناس لعمّهم بسبوغ النعم، ولكنّه لم يعمّهم بذلك" بل فاوت بينهم، فأفقر بعضهم، وأكثر بؤسهم وضرّهم، وفرّق أمرهم، ليسهل ردّهم عن الكفر الذي أدتهم إليه طبائعهم وحظوظهم ونقائصهم بما يشهدون من قباحة "الظلم والعدوان إلى ما يرونه من محاسن الدين والإيمان ولذّة الخضوع للملك الديّان، فتخضع لهم الملوك والأعيان، ويصير لهم الفرقان على جميع أهل العصيان»[١١].

سُمّيت (سورة الزخرف) لما فيها من التمثيل الرائع لمتاع الدنيا الزائل وبريقها الكاذب المخادع بالزخرف اللامع الذي ينخدع به كثير من الناس، ويغترون بالمظاهر الخلاّبة من زينة الدنيا، غير انها لا تُساوي عند الله جناح بعوضة، ولهذا يعطيها الله للأبرار والفجّار، وينالها الأخيار والأشرار، أمّا الآخرة فلا يمنحها الله إلا لعباده الصالحين، فالدنيا هي دار الفناء والاختبار، والآخرة هي دار البقاء والقرار[١٢].

أمّا عدد كلمات هذه السورة فثمانمائة وثلاث وثلاثون كلمة. وأمّا بالنسبة لعدد حروفها فثلاثة آلاف وأربعمائة حرف[١٣].

المطلب الثاني

أسباب نزول بعض آياتها

من أسباب نزول بعض آياتها ما روي عن عبد الله بْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لِقُرَيْشٍ:(يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ لَا خَيْرَ فِي أَحَدٍ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا: أَلَيْسَ تزعم أن عيسى كان عبدا نبيا وعبدا صالحا، فَإِنْ كَانَ كَمَا تَزْعُمُ فَقَدْ كَانَ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ!. فَأَنْزَلَ اللَّهُ

تَعَالَى﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ [١٤] أَيْ يَضِجُّونَ كَضَجِيجِ الْإِبِلِ عِنْدَ حَمْلِ الأثقال[١٥].

وعَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبِيعَةَ، أَنَّهُ كَانَ رِدْفًا لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ، قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى ظَهْرِ الدَّابَّةِ، قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ ثَلَاثًا، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ثَلَاثًا،﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ [١٦] الْآيَةُ ثُمَّ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ، إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، ثُمَّ مَالَ إِلَى أَحَدِ شِقَّيْهِ فَضَحِكَ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا يُضْحِكُكَ؟ قَالَ: إِنِّي كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا صَنَعْتُ فَسَأَلْتُهُ كَمَا سَأَلْتَنِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ اللَّهَ لَيَعْجَبُ إِلَى الْعَبْدِ إِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، قَالَ: عَبْدِي عَرَفَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ وَيُعَاقِبُ)[١٧]

المطلب الثالث

فضل السورة وصلتها بما قبلها

لقد اهتم اغلب العلماء بتتبّع السور والآيات وفضائلها في القرآن الكريم، وأُلفت فيها المؤلفات، وممن الف فيها ابن كثير وغيره، ومن بعدهم من المعاصرين لكنه لم يرد شيء مخصوص في فضل السورة في تلك المؤلفات، إلا أنّ هناك بعض الأحاديث التي تورد بعض الفضائل للسورة ضمناً، منها: أنّها من المثاني التي أوتيها النبي ﷺ مكان الإنجيل، فعن واثلة بن الأسقع – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: **(أُعطيتُ مكان التوراة السبع الطوال**[١٨]**، ومكان الزبور المائين**[١٩]**، ومكان الإنجيل المثاني**[٢٠]**، وفُضّلت بالمفصّل**[٢١]**)**.

واما عن صلة السورة بما قبلها فقد تتبعت في الكتب التي أُلفت في علم المناسبات، ككتاب نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي، فلم أجد ما يخصّ هذه السورة، إلا أنّ المراغي ذكر وجها مناسبا لسورة الزخرف لما قبلها وهي سورة الشورى: أنّ مفتتح سورة الزخرف يُشاكل مختتم سورة الشورى[٢٢].

ففي أواخر سورة الشورى يذكر الله عزّ وجلّ أنّه كما أوحى إلى الأنبياء قبل الرسول محمّد ﷺ الكتب أوحى كذلك إلى نبيه محمّد ﷺ القرآن الذي ما كان يُعلم قبل نزوله ما الشرائع التي بها هداية البشر وصلاحهم في الدارين، ثمّ جاء سبحانه في بداية سورة الزخرف فأقسم بهذا القرآن المبيّن لطريق الهدى.

واذا كانت سورة الشورى قد ذكرت ان مضمون رسالات الله: هو إقامة دين الله وعدم التفريق فيه وذكرت كذلك خصائص الجماعة التي تستطيع إقامة دين الله والاجتماع عليه... فان سورة الزخرف قد ذكرت خصائص هذا القران الذي يعرض دين الله ومضمونه الأعلى الحكيم

وكونه يشـــرف حامليه وأن فيه علم الســـاعة التي هي من اعظم حدث يمر على هذا العالم وفي ذلك تربية لحملة الإســـــلام ان يقيموه ولا يتفرقوا فيه مع الاعتزاز به وعدم الالتفات عنه وعدم الاغترار بحال الكافرين وما هم.

المبحث الثاني

المضامين الدعوية في السورة وفيه مطلبان

المطلب الأول: الأساليب الدعوية في سورة الزخرف وفيه:

اولًا: الأسلوب القصصي في السورة

للقصـة أهمّية كبرى في سرعة نفاذها، وقوّة تأثيرها، واستمرار أثرها، إذا ما قورنت بالكلام العادي المرســـل؛ لأنّها تمثّل الحياة بكلّ معانيها، من نشـــاط وحركة وتفكير وانفعال ومواقف. فالقصـــة هي القدرة على مخاطبة الناس وتذكيرهم، بالاعتماد على الأحداث والســير الماضـــية، ويُعد أسـلوب القصـة من الأسـاليب المؤثرة في الناس بشـكل واضـح، إذ يتجلى ذلك بالتأثير من الناحية النفسية إذ يهتمون به ويتفاعلون معه في الأعم الأغلب.

والإسـلام في نظامه الدعوي والتربوي يسـتخدم جميع الأسـاليب ليصـل إلى نفوس الناس وعقولهم، والقصّة هي إحدى هذه الأساليب، فالقرآن الكريم بين دفتيه يذكر لنا من أحسن القصص الهادفة التي تضمّ إلى جمال الأسلوب قوّة العاطفة الحيّة، وصحّة الفكرة ووضوحها، فالقصّة في الدعوة والتربية هي واقعيّة صـادقة قائمة فعلاً في الوقت الحاضـر، أو كان لها وجود حقيقيّ في التاريخ الصـحيح الصـادق، وهذا ما تنفرد به القصّـة الإسـلاميّة الدعوية عن غيرها الذي يعتمد القصص الخرافيّة أو الأساطير القديمة.

وللقصّة مقام عظيـم في الدعـوة الى الله، وفي تدريس مختلف العلوم؛ لأنّها محبّبة للنفوس، وتتلخّص هذه الآثار النفسـيّة والتربويّة والدعوية للقصّـة بشـد المتلقي وتشـويقه لمتابعة الاحداث المتسلسلة فيها وما سيجري، وكيف كان ذلك وتركيز الانتباه مع دوام الإصـغاء النشيط، وإشباع الفكر والعقل والنفس من ذلك الخيال، والاستزادة من المعلومات بطريق مباشر وحيّ، ترابط العلوم الدراسيّة على اختلاف تصانيفها(٢٣).

وقد ورد أسلوب القصّـة في سورة الزخرف في مواضـع عدّة، منها: يقول تعالى في قصّـة إبراهيم – عليه السلام –: ﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۞ وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٢٤).

فهنا يذكّر الله عزّ وجل نبيّه محمّد ﷺ بقصّـــة إبراهيم عليه الســـلام مع أبيه وقومه الذين كانوا يعبدون ما يعبده قوم سـيدنا محمّد ﷺ حينما قال لهم إبراهيم عليه السـلام: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَـيَهْدِينِ** ﴾، وكيف جعل إبراهيم عليه الســـلام كلمة

التوحيد «لا إله إلا الله» باقية من بعده؛ لعلّهم يرجعون إلى طاعة ربّهم وتوحيده، ويتوبون من كفرهم وذنوبهم، وهذه القصّة فيها تسلية للرسول ﷺ وتثبيت لفؤاده، إ أنّه قد اوذي من قومه اشد الايذاء، من الاستهزاء والسب والسخرية عليه ﷺ. وقوله تعالى في قصّة موسى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[٢٥].ويقول تعالى في قصّة مريم:﴿ **ولمّا ضُرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدّون**﴾[٢٦].

ومن بعض فؤائد القصص القرآني:

١. تسلية قلب النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيت فؤاده وحثه على لصبر على قومه في ظل التكذيب والاعراض والاذى.
٢. ان تكون عبرة للناس ولا يراد بها السرد وذكر تأريخ الأمم السابقة فحسب.
٣. تبيين سنن الله في خلقه مع الاقوام الذين كذبوا الرسل وكان عاقبة أمرهم الدمار والهلاك.
٤. بيان قدرة الله تعالى في إعطاء المعجزات للانبياء وتأييدا لصدق دعواهم.

ثانيًا: أسلوب الترغيب والترهيب

إنّ نفس الإنسان مجبولة بين الرجاء والخوف، فإذا رغبت في أمر استعدّت للإقدام عليه، وتحفّزت للفوز به، وإذا خافت من أمر تهيّأت للإحجام عنه، وتحفّزت للنفور منه.

ولقد استخدم الإسلام الترغيب والترهيب كأسلوب دعوي وتربويّ استخداماً لا يمكن أن يصل إليه منهج من مناهج البشر؛ لأنّ توجيهه ينبني على حاجة النفس الفطريّة، وما ترغبه النفس وترهبه، وهذا أمر خفيّ على بني البشر، فقد يتوهّم الإنسان أمراً يخافه وينفر منه، وفيه في ذات الوقت مصلحة قد لا يدركها في نظره القريب، وقد يتوهّم أمراً يرغبه ويتقرّب منه، وفيه في ذات الوقت مضرّة قد لا يدركها في نظره القريب.

ونستطيع القول أنّ أساليب الترغيب والترهيب الذي ينتهجه القرآن الكريم كأسلوب رأيسي في الحثّ على فعل الواجبات واجتناب المحرمات، وهل الدين إلا أمر ونهي، وبذا يكون هذا الأسلوب من أشمل الأساليب الدعوية والتربويّة في كتاب الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وسلم، وحينما يهتمّ الإسلام بهذا الأسلوب كلّ هذا الاهتمام فلأنّه أسلوب عميق التأثير في القلوب والنفوس البشريّة لأنه يحرّك فيها فطرتها نحو الخير، ويستثير فيها الإقدام على فعله، ويبغّض لها الشرّ، ويستثيرها في حربه والإقلاع عنه.

فالصلة إذاً مباشرة بين هذا الأسلوب وبين القلوب التي يحرّك فيها المشاعر، ليصيغ الإسلام منها بعد ذلك منهجاً دعويا وتربويّاً ينعكس على دنيا الواقع بإيجابيّة رافعة ودافعة للمسلم

وأســرته ومجتمعه، وكذلك لو نظرنا الى آيات الترغيب والترهيب لوجناها متلازمات، فالحكمة من ذلك أن من لا يؤثر فيه الترغيب في الثواب فالترهيب وعقابه يثنيه عن الوقوع في الغيّ والضلال.

هذا وقد اشتملت سورة الزخرف على هذا الأسلوب العظيم، يقول تعالى:﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُــهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَاعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْــلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِــحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْــتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ (٢٧).

ففي هذه الآيات الكريمات توجهات دعوية وتربوية للخوف والرجاء، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب لمن يعقل من بني البشر.

ثالثا: أسلوب ضرب الأمثال

المِثل: كلمةُ تَسْوِيَةٍ. يُقَالُ: هَذَا مِثْله ومَثَله كَمَا يُقَالُ شِبْهه وشَبَهُه بِمَعْنًى؛ قَالَ ابْنُ بَرِّيٍّ: الْفَرْقُ بَيْنَ المُمَاثَلَة والمُساواة أَن المُساواة تَكُونُ بَيْنَ المختلِفين فِي الجِنْس والمتَّفقين، لأَن التَّساوِي هُوَ التكافُؤُ فِي المِقْدار لَا يَزِيدُ وَلَا ينقُص، وأَما المُمَاثَلَة فَلَا تَكُونُ إِلا فِي الْمُتَّفِقِينَ (٢٨)

وفي الاصــطلاح: يرى ابن المقفع أن الكلام إذا جاء على شــكل مثل كان أحســن إلى الســامع واخف على الحفظ، إذ يقول (إذا جعل الكلام مثلا كان أوضــح للمنطق، وآنَقَ للســمع، وأَوْسَعَ لشُعُوب الحديث) قال ابن السِّكِّيتِ نقلا عن الميداني(المَثَلُ: لَفْظٌ يخالفُ لفظَ المضروب له، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ، شَبَّهُوه بالمثال الذي يُعْمَلُ عليه غيره) (٢٩)

وتهدف ضــــرب الأمثال القرآنية إلى تقريب المعاني إلى عقل المتلقي، وإثارة الانفعالات المناســبة للمعنى وتربية العواطف الربّانيّة، والتنفير من الممثّل به حين يكون ممّا تكرهه النفوس، واظهار المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس فيتقبّله العقل، واثارة الوجدان والعواطف، والكشف عن الحقائق، وعرض الغائب في معرض الحاضر، وكذلك الترغيب في الممثّل به حين يكون ممّا ترغب فيه النفوس.

وهكذا تتّضــح فاعلية الأمثال أســلوباً من أســاليب التربية والدعوية، وعن طريقها يمكن تحقيق أهداف الدعوة التي تسعى إليها(٣٠).

هذا وقد ورد هذا الأسـلوب في مواضــع عدّة من السـورة، منها قوله تعالى: ﴿ أَفَنَضْـرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ

نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) ﴾[٣١]. ففي هذه الآيات الكريمة يضرب الله المثل لرسوله ﷺ في مشابهة قومه لمن سبقوهم من الأقوام في القرون الأولى، من جهة أنّهم يُشابهونهم في الكفر والطغيان والاستهزاء بأنبيائهم كما يكفر ويستهزأ هؤلاء الكفّار من قوم محمّد ﷺ بمحمدّ ﷺ، وهذا فيه تسلية لرسوله ﷺ، يقول الله تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ ﴾[٣٢].

رابعًا: أسلوب الحكمة

إنّ أسلوب القرآن الكريم يمتاز بالحكمة الامتناهية، كيف لا وهو كلام الله عزّ وجل الحكيم العليم﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾[٣٣]﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [٣٤]، وقد وصف الله عزّ وجلّ كتابه بالحكمة، فقال جلّ من قائل:﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [٣٥]، وقال أيضاً:﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [٣٦].

هذا وقد تجلّى أسلوب الحكمة في سورة الزخرف في قوله تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [٣٧].

قال الطبري – رحمه الله –: ((يقول جلّ ثناؤه موبخا هؤلاء المشركين الذين وصفوه بأن الملائكة بناته: اتخذ ربكم أيها الجاهلون مما يخلق بنات، وأنتم لا ترضون لأنفسكم، وأصفاكم بالبنين. يقول: وأخلصكم بالبنين، فجعلهم لكم. يقول تعالى (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلا) وإذا بشر أحد هؤلاء المشركين الجاعلين لله من عباده حزءا بما ضرب للرحمن مثلا يقول: بما مثل لله، فشبهه شبها، وذلك ما وصفه به من أن له بنات ظلّ وجه هذا الذي بشَّر بما ضرب للرحمن مثلا من البنات مسودّا من سوء ما بشر به. (وَهُوَ كَظِيمٌ) يقول: وهو حزين.... وجعلوا ملائكة الله الذين هم خلقه وعباده بنات الله، فأنثوهم بوصفهم إياهم بأنهم إناث، أشهدوا هم ذلك فعلِموه؟ ستكتب شهادة هؤلاء القائلين: الملائكة بنات الله في الدنيا، بما شهدوا به عليهم، ويسألون عن شهادتهم تلك في الآخرة أن يأتوا ببرهان على حقيقتها، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلا))[٣٨].

وقال المراغي: ((أي هل اتخذ سبحانه من خلقه أخسّ الصنفين لنفسه، واختار لكم أفضلهما؟ ؟، وإذا بشر أحد هؤلاء بما نسبوه لله من البنات أنف وعلته الكآبة والحزن من سوء ما بشر به وتوارى من القوم خجلا، أو قد جعلوا لله الأنثى التي تتربى فى الزينة، وإذا خوصمت لا تقدر على إقامة حجة ولا تقرير دعوى، لنقصان عقلها وضعف رأيها؟ وما كان ينبغى لهم أن

يفعلوا ذلك)) [٣٩]. وقال القاسـمي: ((أي جعلوا ملائكة الله الذين هم عنده يُسـبّحونه ويُقدّسـونه إناثاً، فقالوا: هم بنات الله، جهلاً منهم بحقّ الله سبحانه، وجراءةً منهم قول الكذب))[٤٠].

ففي هذه الآيات الكريمات يتجلّى أسـلوب الله عزّ وجلّ الحكيم عندما يخاطب هؤلاء الكفّار الجاحدين من منطلق عقولهم، ومن منطلق عاداتهم الجاهليّة ونظرتهم إلى البنات، في سبيل دحض حججهم وافتراءاتهم وأباطيلهم التي يزعمونها.

المطلب الثاني

المنهج الدعوي في معالجة القضايا الاجتماعية في السورة

مما لا شـكّ فيه إنّ مسـؤولية التربية الاجتماعية من أهمّ المسـؤوليات في إعداد الفرد لدى المربّين، بل هي حصـيلة كل جانب من جوانب التربية، سـواء كان ذلك الجانب إيماني أو تعبّدي أو علمي أو عقلي أو خلقي أو اجتماعي أو اقتصـادي، لكونها الظاهرة السـلوكيّة والوجدانيّة التي تربّي الفرد على أداء الحقوق، والتزام الآداب، والرقـابـة الاجتمـاعيـة، والاتزان العقلي، وحسـن السياسة والتعامل مع الآخرين.

ومن الثابت تجربة وواقعاً أنّ سـلامة المجتمع وقوّة بنيانه وتماسكه مرتبطتان بسـلامة أفراده وإعدادهم، ومن هنا كانت عناية الإسلام بتربية الفرد اجتماعيّاً وسلوكيّاً، وفي هذا الطلب:

اولا: أهمية القدوة الحسنة

إنّ أيّة عملية دعوية وتربوية لاي مجتمع لا تقوم من خلال نظريات وكلمات، بل لابدّ من ترجمة تلك الاقوال والنصـائح الى الأفعال والسـلوك العملي، والنظريات بالحقائق، ومن اجل هذا حثّ الله عزّ وجلّ على هذا الأمر العظيم الذي يرتقي بالمجتمع، أمّا إذا كانت الدعوة والقدوة يعتريها الخلل والزلل، فإنّها تضـعف كيان ذلك المجتمع، كما قال تعالى:﴿كَذَلِكَ مَا أَرْسَـلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ وقوله تعالى على لسـان سـيدنا إبراهيم ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَـيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وقولـه تعالى﴿وَلَقَدْ أَرْسَـلْنَا مُوسَـى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُـولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) ﴾

من خلال النظر في هذه الآيات الكريمة نرى أهمّية الداعية والقدوة في التربية، وأنّ القدوة الحقيقة هي من أنجع وافضـل الوسـائل المؤثّرة في إعداد وتكوين الولد خُلقيّاً، وتهيئته نفسـيّاً واجتماعيّاً، ذلك لأنّ القدوة الصـالحة هي المثل الأعلى في نظر الطفل، والأسـوة الصـالحة في عين الولد، يقلّده سـلوكيّاً، ويجاريه خُلقيّاً، من جهة يعلم أو لا يعلم، بل تنطبع في نفسـه وإحساسه، صورته بجميع معانيها، من جهة يدري أو لا يدري.

ومن هنا كانت القدوة عاملاً كبيراً في صـــلاح الولد أو فســاده، فإن كان المربّي والداعي صادقاً أميناً خلوقاً كريما شُجاعاً عفيفاً، نشأ الولد على الصدق والأمانة والخُلق والكرم والشجاعة والعفّة، وإن كان المربّي كاذباً خائناً بخيلاً جباناً، نشـــأ الولد على الكذب والخيانة والجُبن والبُخل. إنّ الولد مهما كانت نفسـيته مسـتعدة للخير، ومها كانت فطرته نقيّةً سـليمة، فإنّه لا يسـتجيب لمبادئ الخير وأصـــول التربية الفاضـــلة ما لم يرَ المربّي والداعي في قمة من مكارم الاخلاق والسـلوك. ولهذا بعث الله سـيدنا محمّداً ﷺ ليكون للمسـلمين على مدار التاريخ القدوة الصـالحة، وللبشريّة في كلّ زمان ومكان السراج المنير ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[٤١]، قال ابن كثير – رحمه الله –: وهذه الآية أصـــل كبير في الاقتداء برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله[٤٢]. ويقول تعالى أيضاً: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾[٤٣].

ووضع الله سبحانه في شخص سيدنا محمّد ﷺ الصورة الكاملة للمنهج الإسلامي، ليكون للأجيال المتعاقبة الصورة الحيّة الخالدة في كمال خُلقه وشمول عظمته، حتّى قالت السيدة عائشة – رضي الله عنها – حين سُئلت عن خُلق رسول الله ﷺ قالت: **«كان خلقه القرآن»**[٤٤].

قال ابن حزم – رحمه الله –: ((فمن أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، وعدل الســـيرة، والاحتواء على محاسـن الأخلاق كلّها، واسـتحقاق الفضـائل بأسـرها، فليقتدِ بسـيدنا محمّد ﷺ، وليستعمل أخلاقه وسيرته ما أمكنه))[٤٥].

ثانيا: أهمية القرين والملازم والصاحب والصديق

للقرين والصـــديق أثر كبير في تربية الفرد في المجتمع، إذ انّه كما قيل في المثل (الصاحب ساحب)، فإذا ما كان الملازم صالحاً كان من لازمه صالحاً أيضاً، والعكس كذلك، إن كان فاســداً فكذلك الملازم له يكون كذلك غالباً، وقد ورد في القرآن الكريم ذكر القرين، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّـبِيلِ وَيَحْسَـبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْـرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْـتَرِكُونَ ﴾[٤٦]. قال الطبري – رحمه الله –: ((ومن يعرض عن ذكر الله فلم يخف سـطوته ولم يخش العقاب، نهيئ له شـيطاناً يغويه، فهو للشـيطان قرين، وإنّ الشـياطين ليصُـدُّون هؤلاء الذين يَعْشُـون ويغفلون عن ذكر الله وعن سبيل الحقّ، فيُزيّنون لهم الضـلالة، ويُكرّهون ويبغّضـون إليهم الإيمان بالله والعمل بطاعته، ويظنّ المشركون بالله بتحسين الشياطين لهم ما هـــــم عليه من الضلالة أنّـــــهم على الحقّ والصـواب، حتّى إذا جاءنا قال أحد هذيـن القرينين لصاحبه الآخر: وددت أنّ بيني وبينك بعد ما بين المشـــرق والمغرب، فبئس القرين، ولن ينفعكم اليوم أيّها العاشـــون عن ذكر الله في الدنيا إذ

أشركتم فيها بربّكم، فلن يخفّف عنكم من عذاب الله اليوم اشتراككم فيه؛ لأنّ لكلّ أحد منكم نصيبه الأوفر منه)) (٤٧). وقال البغوي – رحمه الله –: ((أي ومن يعرض عن ذكر الرحمن، فلم يخف عقابه، ولم يرجُ ثوابه، نُسبّب له شيطاناً ونضمّه إليه ونُسلّطه عليه، فهو لا يفارقه، يُزيّن له العمى، ويُخيّل إليه أنّه على الهدى، وإنّ الشياطين ليمنعونهم عن الهدى ويحسب كفّار بني آدم أنهم على هدى، حتّى إذا جاءنا قال الكافر لقرينه الشيطان: يا ليت بيني وبينك بعد ما بين المشرق والمغرب، فبئس القرين، ولن ينفعكم في الآخرة إذ أشركتم في الدنيا ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ يعني: لا ينفعكم الاشتراك في العذاب، ولا يُخفّف الاشتراك عنكم العذاب؛ لأنّ لكل واحد من الكفّار والشياطين الحظّ الأوفر من العذاب))(٤٨).

وقال السعدي – رحمه الله –:((أي ومن يعرض ويصدّ عن القرآن العظيم الذي هو أعظم رحمة رحم بها الرحمن عباده، فمَن قبلها فقد قبل خير المواهب، وفاز بأعظم المطالب والرغائب، ومن أعرض عنها وردّها، فقد خاب وخسر خسارة لا يسعد بعدها أبداً، وقيّض له الرحمن شيطاناً مريداً يقارنه ويصاحبه، ويعده ويمنّيه، ويؤزّه إلى المعاصي أزّاً... فإن قيل: فهل لهذا من عذر، من جهة أنّه ظنّ أنّه مهتد، وليس كذلك؟ قيل: لا عذر لهذا وأمثاله، الذين مصدر جهلهم الإعراض عن ذكر الله مع تمكّنهم على الاهتداء، فزهدوا في الهدى مع القدرة عليه، ورغبوا في الباطل، فالذنب ذنبهم، والجرم جرمهم، فهذه حالة هذا المُعرض عن ذكر الله في الدنيا مع قرينه، وهو الضلال والغيّ وانقلاب الحقائق، وأمّا حاله إذا جاء ربّه في الآخرة فهو شرّ الأحوال، وهو: إظهار الندم والتحسّر، والحزن الذي لا يجبر مصابه، والتبرّي من قرينه، ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ (٤٩)، ولا ينفعكم يوم القيامة مشاركتكم في العذاب أنتم واصحابكم وأخلاّؤكم، وذلك لاشتراكتم في الظلم، فاشتركتم في عقابه وعذابه، ولن ينفعكم أيضاً روح التسلّي في المصيبة، فإنّ المصيبة إذا وقعت في الدنيا واشترك فيها المعاقبون هان عليهم بعض الهون، وتسلّى بعضهم ببعض، وأمّا مصيبة الآخرة فإنّها جمعت كلّ عقاب، ما فيه أدنى راحة، نسألك يا ربّنا العافية، وأن تريحنا برحمتك))(٥٠). ويقول تعالى أيضاً في سورة الزخرف ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٥١).

قال الامام الطبري – رحمه الله –: ((المتخالُّون يوم تقوم الساعة على معاصي الله في الدنيا بعضهم لبعض عدوٌّ يتبرّأ بعضهم من بعض، إلا الذين كانوا تخالُّوا فيها على تقوى الله))(٥٢).

من النظر في الآيات السابقة وتفسير علماء المسلمين لها نرى أنّ من العـــوامل الهامّة في تكوين الفرد إيمانيّاً ونفسيّاً، وإعداده خُـــلقـيّاً واجتماعيّاً، ربط الفرد منذ نعومة أظفاره بالصحبة المؤمنة الصالحة، ليكتسب منها ما يُنمّي شخصيته من علم نافع، وأدب سامٍ، وأخلاق قويمة.

وقد قال الرسـول ﷺ: (مثل الجليس الصـالح والجليس السـوء كمثل حامل المسـك ونافخ الكير، فحامل المسك إمّا أن يُحذيَكَ، أو تشتري منه، أو تجد منه ريحاً طيّبة، ونافخ الكير إمّا أن يحرق ثيابك، أو تجد من ريحاً منتنة)[٥٣].

وللقرين والملازم والصاحب والصديق الصالح صفات من أهمها:

١. المحبة في الله، فقد قال ﷺ: (ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما، وأن يحبّ المرء لا يُحبّه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار)[٥٤].

٢. ان لايقاطع إخوانه ولا يهجرهم، قال ﷺ: (لا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيّام، يلتقيان، فيُعرض هذا ويُعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام)[٥٥].

٣. أن يكون مسامحاً عفوّاً عن إخوانه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [٥٦].

٤. أن يستبشر بوجه اخوانه، فقد قال النبي ﷺ: (لا تحقرنّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق)[٥٧].

٥. أن يبدي النصيحة لإخوانه، قال ﷺ: (الدين النصيحة) قلنا: لمن؟ قال: (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمّة المسلمين وعامّتهم)[٥٨].

٦. أن يكون رفيقا بإخوانه، قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[٥٩].

ثالثًا: التفاوت في القوة والضعف من سنن الله

تتفاوت البشــرية في القوّة المادّية والمعنوية، في الجســم والعقل والمال والتفكر، حســب مشـيئة الله عزّ وجلّ وحكمته البالغة، فلا يسـتطيع أحد مهما أوتي من إمكانات أن يُبدّل أو يؤثّر في هذه المشـيئة الحكيمة الخبيرة، كما ثبت عن النبي ﷺ في وصـيته لابن عبّاس – رضـي الله عنهما –: (يا غلام إنّي أعلّمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا ســئلت فاســأل الله، وإذا اســتعنت فاســتعن بالله، واعلم أنّ الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشــيء لم

ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفّت الصحف)[٦٠].

ويؤيّد هذا الحديث قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [٦١].

قال الطبري – رحمه الله –:((يقول جلّ وعزّ: أهؤلاء القائلون: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [٦٢] يا محمّد يقسمون رحمة ربّك بين خلقه، فيجعلون كرامته لمن شاءوا، وفضله عند من أرادوا، أم الله الذي يقسم ذلك، فيُعطيه من أحبّ ويحرمه من شاء؟ بل نحن نقسِم رحمتنا وكرامتنا بين من شئنا من خلقنا، فنجعل من شئنا رسولاً، ومن أردنا صدّيقاً، ونتّخذ من أردنا خليلاً، كما قسمنا بينهم معيشتهم التي يعيشون بها في حياتهم الدنيا من الأرزاق والأقوات، فجعلنا بعضَهم فيها أرفع من بعض درجة...)) [٦٣].

رابعا: فضل قريش على غيرهم.

أنزل الله عزّ وجلّ القرآن الكريم بلغة العرب تكريماً لهم، واشتمل هذا التكريم قبيلة قريش، فهم أخبر الناس بأساليب القرآن، فعن ابن شهاب أنّ أنس بن مالك حدّثه أنّ حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يُغازي أهل الشام في فتح إرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمّة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثمّ نردّها إليكِ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيّين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنّما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتّى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كلّ أفق بمصحف ممّا نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق[٦٤] يقول تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [٦٥].

قال الطبري – رحمه الله –((أي إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً بلسان العرب، إذ كنتم أيّها المنذَرون به من رهط محمّد ﷺ عرباً[٦٦])) وقال ابن كثير – رحمه الله –: ((أي أنزلناه بلغة العرب فصيحاً واضحاً لعلّكم تفهمونه وتتدبّرونه))[٦٧].

فهذه الآية الكريمة فيها تفضيل وتشريف للعرب على غيرهم من الناس بشكل عام، وتفضيل وتشريف لقريش على غيرهم من العرب بشكل أخصّ، إذ أنّه قد نزل القرآن الكريم باللغة العربية على النبيّ العربي القرشي محمّد ﷺ، وما أنزله الله عز وجلّ عربياً إلا ليكون أدعى للفهم

والتفكر والتعقّل، إذ لو كان على غير العربية لاحتج القريشيون وبقيّة العرب من بعدهم على عدم إيمانهم به أنّهم لا يفهمون ولا يعقلون ما فيه، وإن كانت هذه الحجّة باطلة من أصـــلها، إذ أنّ الإنسان مطالب بالإيمان بهذا الكتاب وبمن أنزل عليه سواء كان عربي أو غير عربي، ومع هذا نجد أنّ كثيرا من العرب وكثير من قريش لم يؤمنوا بهذا الكتاب، مع أنّه قد نزل بلغتهم وعلى لسانهم وذلك لأنّ الهداية والضلالة بيد الله، يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء ﴿**مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾[٦٨].

الهوامش:

(١) سورة الذاريات: الآية (٥٦).

(٢) ينظر: أصول التربية الإسلامية، الخطيب, محمد شحات وآخرون, دار الخريجي للنشر والتوزيع, الرياض, ط٣, ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م, (ص:٥١).

(٣) سورة الإسراء: الآية (٩).

(٤) المسند الصحيح المختصر، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي, دار إحياء التراث العربي, بيروت (باب جامع صلاة الليل) (ج١، ص٥١٢)

(٥) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله، عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني، دار القلم, دمشق, ط٢ ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م, (ص:٩).

(٦) سورة ص:الآية (٢٩).

(٧) عبد الله بن حبيب بن ربيعة أبو عبد الرحمن السلمي الكوفي المقرىء مشهور بكنيته ولأبيه صحبة ثقة ثبت من الثانية مات بعد السبعين, (ينظر: تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني, أحمد بن علي، تحقيق: محمد عوامه, دار الرشيد, سوريا, ط١, ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م, (ص:٢٩٩).

(٨) جامع البيان في تأويل القرآن, محمد بن جرير الطبري, تحقيق: أحمد محمد شاكر, مؤسسة الرسالة, د.م, ط١, ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، (ج١، ص٨٠).

(٩) حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين، احمد بن محمد الخلوتي الصاوي المصري المالكي (ت، ١٢٤هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م) دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان (ج ٥ ص٢٣٧).

(١٠) هو إبراهيم بن عمر بن حسن الرُباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، أبو الحسن برهان الدين، ولد سنة٨٠٩هـ، مؤرّخ أديب، أصله من البقاع في سورية، وسكن دمشق، ورحل إلى بيت المقدس والقاهرة، وتوفّي بدمشق سنة٨٨٥هـ. (ينظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع محمّد بن علي بن محمّد الشوكاني:، (د.م)، مصر، (د.ر،ت): ج١، ص١٩.

(١١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين البقاعي، تحقيق: عبد الرزّاق غالب المهدي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م: ج٧، ص٣.

(١٢) ينظر: صفوة التفاسير محمّد علي الصابوني:، طبعة دار القرآن الكريم، بيروت، ط٤، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م:

ج٣، ص ١٥٠.

(١٣) يُنظر: التفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم الخطيب، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة، ج١٣، ص١٠١.

(١٤) سورة الزخرف آية ٥٧.

(١٥) الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م، ج ١٦ ص ١٠٣.

(١٦) سورة الزخرف آية ١٣.

(١٧) المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت: ٤٠٥هـ) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠،ج ٢، ص١٠٨ رقم الحديث (٢٤٨٢) هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ

(١٨) السبع الطوال: هي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس، وإنّما سُمّيت هذه السور السبع الطوال لطولها على سائر سور القرآن. (ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري، ج١، ص٤٥).

(١٩) المائين: هي السور التي عدد آياتها مائة آية أو تزيد عليها شيئاً أو تنقص منها شيئاً يسيراً. (ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري ج١، ص٤٥).

(٢٠) المثاني: هي ما ثنّى المائين فتلاها، فكان المآئين لها أوائل وكان المثاني لها ثواني، وقد سُمّيت بالمثاني لتثنية الله جلّ ذكره فيها الأمثال والخبر والعبر، وقيل: لأنّها ثُنّيت فيها الفرائض والحدود. (ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري: ج١، ص٤٥).

(٢١) المفصّل: سمّيت مفصّلاً لكثرة الفصول التي بين سورها ب(بسم الله الرحمن الرحيم). (ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري، ج، ١ص٤٦).

(٢٢) يُنظر: تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت: ١٣٧١هـ) الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ – ١٩٤٦م. ج٩، ص٦٧

(٢٣) ينظر: الرسول العربي المربي، عبد الحميد الهاشمي، طبعة دار الثقافة للجميع، دمشق، (د،ر)، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م. ص٢٨٩.

(٢٤) سورة الزخرف، الآيات (٢٦–٢٨).

(٢٥) سورة الزخرف، الآية (٤٦).

(٢٦) سورة الزخرف، الآية (٥٧).

(٢٧) سورة الزخرف، الآيات (٦٧–٧٨).

(٢٨) لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت،الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ، ج١١، ص ٦١٠

(٢٩) لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت،الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ، ج١١، ص ٦١٠

(٣٠) ينظر: وسائل التعليم في القرآن: عبد الرزّاق نوفل، بحث في مجلّة منار الإسلام، العدد١١،

١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.ص٧.

(٣١) سورة الزخرف، الآيات (٦-٨).

(٣٢) سورة الزخرف، الآية (٥٦).

(٣٣) سورة النمل، الآية (٦).

(٣٤) وسورة الأحقاف، الآية (٢).

(٣٥) سورة آل عمران، الآية (٥٨).

(٣٦) سورة الزخرف، الآية (٤).

(٣٧) سورة الزخرف، الآيات (١٦-١٩).

(٣٨) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري: ج٢٠، ص٥٦٢.

(٣٩) تفسير المراغي: أحمد المراغي ج٢٥، ص٧٧.

(٤٠) محاسن التأويل: محمّد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ج٨، ص٣٣٠.

(٤١) سورة الأحزاب، آية (٢١).

(٤٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، تحقيق: محمّد إبراهيم البنّا وغيره، طبعة الشعب، القاهرة: ج٣، ص٤٨٣.

(٤٣) سورة الأحزاب، آية (٤٥-٤٦).

(٤٤) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني: أحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا الساعاتي (ت: ١٣٧٨ هـ) دار إحياء التراث العربي الطبعة: الثانية، ج٢٢ ص١٤.

(٤٥) الأخلاق والسير في مداواة النفوس: ابن حزم، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٢٤.

(٤٦) سورة الزخرف، الآيات (٣٦-٣٩).

(٤٧) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري، ج٢٠،ص٥٩٥.

(٤٨) معالم التنزيل: أبو محمّد البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك وغيره، طبعة دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م. ج٤، ص١٣٩.

(٤٩) سورة الفرقان، الآيات (٢٧-٢٩).

(٥٠) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبدالرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م: ص٧٦٦.

(٥١) سورة الزخرف، الآية (٦٧).

(٥٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ابن جرير الطبري: ٦٣٩/٢٠.

(٥٣) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه: صحيح البخاري محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ(كتاب البيوع، باب في العطّار وبيع المسك،ج٣ ص٦٣ رقم٢١٠١).

(٥٤) رواه البخاري: صحيح البخاري (كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم١٦).

(٥٥) رواه البخاري: صحيح البخاري (كتاب الاستئذان، باب السلام للمعرفة وغير المعرفة، رقم٦٢٣٧).
(٥٦) سورة آل عمران، آية (١٣٤).
(٥٧) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول ﷺ: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ) تحقتق: محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي – بيروت، ج٤ ص ٢٠٢٦ (كتاب البرّ والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، رقم٢٦٢٦).
(٥٨) رواه مسلم: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (كتاب الإيمان، باب بيان أنّ الدين النصيحة، ج ١ ص٧٤ رقم٥٥).
(٥٩) سورة المائدة، آية (٥٤).
(٦٠) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ) تحقتق: محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي – بيروت م (كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، ج ٤ ص٢٤٨ رقم٢٥١٦).
(٦١) سورة الزخرف، آية (٣٢).
(٦٢) سورة الزخرف، آية (٣١).
(٦٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن:ابن جرير الطبري: ٥٨٣/٢٠.
(٦٤) رواه البخاري: صحيح البخاري (كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، رقم ٤٩٨٨).
(٦٥) سورة الزخرف، الآية (٣).
(٦٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري ج٢٠، ص٥٤٥.
(٦٧) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير: ج٧، ص٢٠٥.
(٦٨) سورة الأعراف، آية (١٧٨).